﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿رَحْمَةً﴾ هنا علّها أعم مما هناك، فإنها مطلق الرحمة وتلك «رحمة منه» وقد تكون خاصة بإزاحة الضّر، و﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ مقابل ﴿يَقْنَطُونَ﴾ يتضمن الأمل، فالناس هنا هم الآملون في إذاقة الرحمة، القانطون في إصابة السيئة بما قدمت أنفسهم.

تراها كيف تلائم المعاكسة في الآية السابقة القائلة عن الناس أنهم حين يمسهم الضر ينيبون إلى ربهم ولزامها الأمل وحين ذوق الرحمة مشركون ولزامه القنوط؟

هنا ﴿رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ تعم الفرح المرح، وقد يتضمن الإشراك بالله، وغيره الجامع أحياناً مع إيمان دون تمام، وهناك «رحمة منه» هي المزيلة للضر وهنا فريق منهم يشركون لا كلهم، ثم وإصابة السيئة حيث تقنطهم قد تجمع القنوط القاحل بنكران الله، وأخرى القنوط الذي يدفعه للإنابة إلى الله لكي يزول بزوال أسبابه.

ثم الناس هنا غير الناس هناك فإنهم مختلفون في إذاقة الرحمة وإصابة الضر بمعاكسة، فـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾[1] والناس هنا مثالهم كما ﴿. . . وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾[2]. ومنهم من يعاكس هؤلاء، والآية الأولى مثالهم كما ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[3]

(١) سورة الحج، الآية: ١١.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٨.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٥١.

ومنهم من هم على سواء في الحالتين، راضين بمرضات الله ومثلهم: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[1].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

بسط الرزق وقدره أياً كان إنما هما بمشيئة الله حسب الحكمة العالية الربانية كما يراها الله، وفي كلّ من البسط والقدر ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، أنه لا يبسط أو يقدر رزقه إلّا بحكمة إمتحاناً أو إمتهاناً، وفي كلّ ابتلاء، بل البلاء في خضمّ الرزق أبلى وأشجى من قدره.

والواو هنا قد تعطف إلى ما تغافلوا عنه وهو: إن لم يروا معاكسة في الرزق وقدره بين المؤمنين وسواهم، بسطاً لهم في الأكثر وقدراً للمؤمنين، وليس في ذلك حط لقدرهم أولاء ورفع لقدر هؤلاء، فإن لم يروا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ بصورة طليقة بين القبيليين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ مؤمناً وكافراً على قلة اهتمام في طلبه وجهله بموارده ﴿وَيَقْدِرُۚ﴾ لمن يشاء على كثرة اهتمامه وعلمه بموارده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الاختلاف الظاهر في بسط الرزق وقدره ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ تدل على قدرة حكيمة وإرادة طليقة وراء القدرات والمحاولات.

ثم البسط والقدر هنا لا يخصان حقل التكوين بل والتشريع أيضاً حيث يفضّل الله بعضاً على بعض في الرزق إيتاء وإنفاقاً وكما:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

آيتان تامرانه ﷺ بإيتاء ذي القربى حقه أولاهما في الأسرى: ﴿وَءَاتِ ذَا

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[1] وقد قدمنا فيها أن ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هو صاحب القرابة الأدنى إلى رسول الهدى ﷺ: نسبياً ورسالياً، حقّ المال وحقّ الحال، إمرة للإمام علي وفدكاً لفاطمة عليها السلام وقد آتاهما[2].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٦.

(٢) ومما ورد في شأن نزولها ما ذكره ملا معين الكاشفي في معارج النبوة (١: ٢٢٧) لما نزل جبرئيل إلى رسول الله ﷺ بقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسرَاء: ٢٦] قال رسول الله ﷺ: من ذو القربى وما حقه؟ قال: هو فاطمة فأعطها فدك. في مجمع الزوائد عن أبي سعيد قال: لما نزلت دعا النبي ﷺ فاطمة فأعطاها فدك، كما أخرجه عنه البزار وأبو يعلي وابن أبي حاتم وابن مردويه، ومن وجه عام في القربى أخرج الثعلبي في تفسيره روى عن السدي عن أبي الديلمي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: نحن ذو القربى.
أقول: قد اوردنا أحاديث من طرق إخواننا السنة حول قصة فدك في تفسير الآية ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النَّمل: ١٦] في سورة النمل فلا نعيدها هنا، وإنما نذكر نموذجاً مما رواه أصحابنا الإمامية، منها ما في تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عثمان بن عيسى وحماد بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما بويع لأبي بكر واستقام له الأمر على جميع المهاجرين والأنصار بعث إلى فدك من أخرج وكيل فاطمة بنت رسول الله ﷺ منها فجاءت فاطمة عليها السلام إلى أبي بكر فقالت: يا با بكر منعتني ميراثي من رسول الله ﷺ وأخرجت وكيلي من فدك وقد جعلها لي رسول الله ﷺ بأمر الله عزوجل؟ فقال لها: هاتي على ذلك شهوداً فجاءت بأم ايمن فقالت: لا أشهد حتى احتج يا أبا بكر عليك بما قال رسول الله ﷺ فقالت: أنشدك يا أبا بكر ألست تعلم أن رسول الله ﷺ قال: أم ايمن امرأة من أهل الجنة؟ قال: بلى قالت: فأشهد بأن الله أوحى إلى رسول الله ﷺ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسرَاء: ٢٦] فجعل فدك لفاطمة بأمر الله وجاء على فشهد بمثل ذلك فكتب لها كتاباً ودفعه أليها فدخل عمر فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال أبو بكر: إن فاطمة ادعت في فدك وشهدت لها أم ايمن وعلي فكتبت لها بفدك، فأخذ عمر الكتاب من فاطمة فمزقه وقال: هذا فيء المسلمين، وقال: أوس بن الحدثان وعائشة وحفصة يشهدون على رسول الله ﷺ أنه قال: انا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، وان علياً زوجها يجرّ إلى نفسه وام ايمن فهي امرأة صالحة لو كان معها غيرها لنظرنا فيه، فخرجت فاطمة عليها السلام من عندها باكية حزينة فلما كان بعد هذا جاء علي عليه السلام إلى أبي بكر وهو في المسجد وحوله المهاجرون والأنصار فقال: يا با بكر لم منعت فاطمة من ميراثها من رسول الله ﷺ وقد ملكته في حياة رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: هذا فيء المسلمين فإن أقامت شهوداً ان رسول الله ﷺ جعل لها والا فلا حق لها فيه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام =

وتراها كيف تعني الحقين وهما مدنيتان وهي مكية؟ قد تكون هي

= تحكم فينا بخلاف حكم الله في المسلمين؟ قال: لا، قال: فإن كان في يد المسلمين شيء يملكونه وادعيت أنا فيه من تسأل البينة؟ قال: إياك كنت اسأل البينة على ما تدعيه على المسلمين، قال: وإذا كان في يدي شيء فادعى فيه المسلمون فتسألني البينة على ما في يدي وقد ملكته في حياة رسول الله ﷺ وبعده ولم تسأل المسلمين البينة على ما ادعوا علي شهوداً كما سألتني على ما ادعيت عليهم شهوداً؟ فسكت أبو بكر ثم قال عمر: يا علي دعنا من كلامك فانا لا نقوى على حجتك فإن أتيت شهوداً عدولاً وإلا فهو فيء المسلمين لا حق لك ولا لفاطمة فيه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام يا أبا بكر تقرأ كتاب الله؟ قال: نعم، قال: فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فيمن نزلت، فينا أم في غيرها؟ قال: بل فيكم، قال: فلو ان شاهدين شهدا على فاطمة بفاحشة ما كنت صانعاً؟ قال: كنت أقيم عليها الحد كما أقيم على سائر المسلمين، قال: كنت إذا عند الله من الكافرين، قال: ولم؟ قال: لأنك رددت شهادة الله لها بالطهارة وقبلت شهادة الناس عليها كما رددت حكم الله وحكم رسوله ان جعل لها فدكا وقبضته في حياته ﷺ ثم قبلت شهادة اعرابي بائل على عقبيه مثل أوس بن الحارث عليها وأخذت منها فدك، وزعمت أنه فيء المسلمين وقد قال رسول الله ﷺ البينة على المدعي واليمين على من أدعى عليه، قال: فدمدم الناس وبكى بعضهم فقالوا: صدق والله علي عليه السلام ورجع علي إلى منزله قال: فدخلت فاطمة عليها السلام المسجد وطافت بقبر أبيها ﷺ وهي تبكي وتقول:

انا فقدناك فقد الأرض وابلها ... و اختل قومك فاشهدهم ولا تغب
قد كان بعدك انباء وهنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
قد كان جبريل بالآيات يونسنا ... فغاب عنا فكل الخير محتجب
وكنت بدراً منيراً يستضاء به ... عليك تنزل من ذي العزة الكتب
تهضمتنا رجال واستخف بنا ... إذ غبت عنا فنحن اليوم مغتصب
وكل أهل له قربى ومنزلة ... عند الإله على الأدنين مقترب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم ... لما مضيت وحالت دونك الترب
فقد رزينا بما لم يرزه أحد ... من البرية لا عجم ولا عرب
فقد رزئنا به محضاً خليقته ... صافي الضرائب والأعراق والنسب
فأنت خير عباد الله كلهم ... و اصدق الناس حين الصدق والكذب
سيعلم المتولي الظلم حامتنا ... يوم القيامة أنى كيف ينقلب

قال: فرجع أبو بكر إلى منزله وبعث إلى عمر فدعاه ثم قال: أما رأيت مجلس عليّ بنا اليوم؟ والله لئن قعد مقعداً مثله ليفسدن علينا أمرنا فما الرأي؟ قال عمر: الرأي ان نأمر بقتله، قال: =

وصاحبتها مكية إعلاناً من قبل أن يؤتي ذا قرباه حقه وقته مهما كان مدنياً، ثم نزلت في المدينة ثانية، أم فسرت فيها بالحقين وأضرابهما، أم هي مدنية ولا تنافيها مكية السورة ككلّ، وأمثالها غير قليل.

و﴿حَقَّهُۥ﴾ قد تلمح بحق ثابت لا قبل له، وهو حق القرابة روحية رسالية كالإمرة بعده أم سواها كفدك وسواه من حق لفاطمة عليها السلام ثم ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ تعني حقوقهم أياً كانوا وأيان، ثم ومن واجهة أخرى تامر الآية كافة المخاطبين بإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ البعيد المدى من إيتاء الحق ﴿خَيْرٌ﴾ قبال الشر وهو ترك الإيتاء ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ في الحياة الدنيا، دون وجهها الظاهر الملهي الملغي وجه الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ شقاً لمزرعة الحياة فإنتاجاً منها، كما الفلّاح يشقّ، فأولئك هم الناجون الناجحون، ولأن الإيتاء هنا

= فمن يقتله؟ قال: خالد بن الوليد، فبعثا إلى خالد فأتاهما فقالا: نريد أن نحملك على أمر عظيم، قال: احملاني على ما شئتما ولو قتل علي بن أبي طالب قالا: فهو ذاك، قال خالد: متى اقتله؟ قال أبو بكر: إذا حضر المسجد فقم بجنبه في الصلاة فإذا أنا سلمت فقم إليه فاضرب عنقه، قال: نعم، فسمعت اسماء بنت عميس ذلك وكانت تحت أبي بكر فقالت لجاريتها: اذهبي إلى منزل علي وفاطمة فاقرئيهما السلام وقولي لعلي عليه السلام: إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين. فجاءت الجارية إليهما فقالت لعلي عليه السلام إن اسماء بنت عميس تقرأ عليكما السلام وتقول لك: «إِنَّ الْمَلَأَ..». فقال علي عليه السلام: إن الله يحول بينهم وبين ما يريدون، ثم قام وتهيأ للصلاة وحضر المسجد ووقف خلف أبي بكر وصلى لنفسه وخالد بن الوليد بجنبه ومعه السيف فلما جلس أبو بكر في التشهد ندم على ما قال وخاف الفتنة وشدة علي عليه السلام وبأسه فلم يزل متفكراً لا يجسر أن يسلم حتى ظن الناس أنه قد سهى ثم التفت اليّ خالد فقال: يا خالد ما الذي أمرك به؟ قال: أمرني بضرب عنقك، قال: أو كنت فاعلاً؟ قال: أي والله لولا أنه قال لي لا تفعل لقتلتك بعد التسليم، قال: فأخذه علي فضرب به الأرض واجتمع الناس عليه فقال عمر: يقتله الساعة ورب الكعبة، فقال الناس: يا أبا الحسن الله الله بحق صاحب هذا القبر فخلى عنه، قال: فالتفت إلى عمر فأخذ بتلابيبه وقال: يا ابن صهاك لولا عهد من رسول الله صلى الله عليه وآله وكتاب من الله عز وجل سبق لعلمت أيناً أضعف ناصراً وأقل عدداً».

طليق فليكن كذلك طليقاً في الوجه العام فيشمل الزكاة كأهم الإيتاءات كما في الآية التالية، ترغيباً فيها بأضعاف، وترهيباً عن الربا بتضعيفه:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

هنا ﴿مِّن رِّبًا﴾ هي الزيادة أيّاً كانت لمكان «من» فتشمل كل زيادة مؤتاة لتزيد في أموال الناس، سواء أكانت الربا المحرمة أم المحللة، فحين لا يقصد مؤتيها ليربوا في أموال الناس، بل يقصد تمشية حاله بالقرض الربوي دون ضرورة واضطرار كان محظوراً، فضلاً عما إذا ينوي ليربوا في أموال الناس قصداً إلى تضخيم الرأسمالية المحرمة ودولة المال بين الأغنياء فإنه أشد محظوراً وأشجى.

ومن الربا المحرمة دون هذه إيتاء الزكاة لغير أهليها من الأثرياء وغير المحاويج، «ليربو في أموالهم» وإن قصد وجه الله لو صح منه هذا القصد.

ومنها إيتاء الزكاة لأهليها المحاويج دون اتجاه فيه لوجه الله فإنه لا يسقط حق الزكاة لفقدان قصد الوجه، وغير ما يقصد فيه ﴿لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ منها، داخلة في حظر الآية وسواه في سواها مما تشترط الفقر وقصد الوجه في صالح الزكاة.

ومن الربا المحلّلة «أن يقرض الرجل أخاه قرضاً لأن يزيده ويعوضه بأكثر مما يأخذ بلا شرط بينهما فإن أعطاه اكثر مما اخذه على غير شرط بينهما فهو مباح له وليس له عند الله ثواب فيما أقرضه..»[1]

(١) نور الثقلين ٤: ١٨٩ عن تفسير القمي بسند عن حفص بن غياث قال قال أبو عبد الله عليه السلام الربا ربائان أحدهما حلال والآخر حرام فأما الحلال فهو أن يقرض... وهو قوله: ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩] وأما الحرام فالرجل يقرض قرضاً ويشترط أن يرد اكثر مما اخذه فهذا هو الحرام.

ومنها «هديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها فذلك رباً يوكل»[١].

ومنها الهدية دون عوض للأثرياء دون ابتغاء وجه الله، بل ليوجّه إليه وجوههم ويزيد في أموالهم، وهذه الأخيرة تشملها الآية نصاً، والأوليان تأويلاً حيث القصد فيهما ليس ليربوا في أموال المؤتى إليهم، بل في أموال المؤتي، توسيعاً للناس إلى المؤتين تأويلاً.

وقد تعم الربا كل زيادة مالية سواء أكانت زيادة دون مقابل في معاملة كالربا المحرمة المعروفة، أم زيادة أيّ من الثمن والمثمن أو العمل وأجرته على بعض بشرط، فمحرمة أيضاً مهما كانت دون الربا المصطلحة.

أم أموالاً زائدة على حاجيات الحياة، وهي العفو في: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[٢] فإيتاء هذه الزيادة لوجه الله وكما أمر الله إضعاف للمال ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ وايتاءها ليربوا - فقط - في أموال الناس ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إذ هو خلو عن وجه الله، وما يؤتى لوجه الله من ربا المال: الزائد فرضاً أو نفلاً، هو زكاة ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

كما أن ما يؤتى بغير وجه الله حلاً أو حراماً هو رباً ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إذ لا أجر فيه عند الله.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

(١) المصدر عن التهذيب بسند عن ابراهيم بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية «قال هو». . . وفيه عن الكافي بسند عن إبراهيم بن عمر اليماني عن أبي عبد الله عليه السلام قال الربا ربائان رباً يؤكل ورباً لا يؤكل فأما الذي يؤكل فهديتك. . وهو قول الله عزوجل: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم. . .﴾ [الرُّوم: ٣٩] وأما الذي لا يؤكل فهو الذي نهى الله عنه وأوعد عليه النار.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

﴿ٱللَّهُ﴾ هنا مبتدء خبره ﴿ٱلَّذِى . . . يُحْيِيكُمْ﴾ تعريفاً به في مربّعه الشامل للبدء والعود وما بينهما، وضلع الخلق من هذا المربع تتبناه الأضلاع الأخرى، فالرزق هو من لزامات الخلق الحكيم، وهو مرحلة ثانية من الخلق، والإماتة هي خلق الانفصال بين الروح والبدن، والإحياء هو خلق ثان في الأخرى لرزق ثان فيها هو من خلفيّات الحياة الأولى.

ذلك عرض خاطف للرحمتين الرحمانية والرحيمية يحلق على كافة الرحمات الإلهية، «ورزقكم» لا تعني - فقط - الرزق المادي فإنه أدناه، بل والروحي فإنه أعلاه، فكل هدى لأيّ خلق هي رزقه حسب الحاجيات والدرجات والمتطلّبات: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] فـ ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أياً كان، عقلاء خيّرين كالعباد الصالحين، أم شريرين كالطواغيت، فضلاً عن سواهم من أصنام وأوثان، فإن «من» هنا تستغرق كل الشركاء المختلقة من دون الله، ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾:

وهنا «من الأولى تستغرق مربع الرحمة ككل، والثانية تستغرق الأجزاء من كلّ، تدليلاً على ألّا شريك له - فضلاً عن مستعل - في أي خلق ورزق وإماتة وإحياء، فهذه الأربع هي قواعد عرش الربوبية، لا شريك له فيها ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وترى الفساد الظاهر في البر والبحر هو أيضاً من رزق الله أم من خلق الشيطان - إذاً - فهو من شركاءه؟ كلا بل:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾:

فلما تكسبه أيدي النسناس من الناس أثر حسب سنة التكوين كما

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.

للحسنات أثر، ولا تبرز هذه الآثار حسنة وسيئة ككل إلّا يوم الحساب، وهنا ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بعضاً منبهاً ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ لا لأنها دار الجزاء الأوفى، وإنما ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: عما تكسبه أيديهم، فكما أن العذاب في الأخرى ليس إلّا نفس ما كسبت أيديهم من آثام كذلك يوم الدنيا.

فهنا الله لا يظهر فساد ما كسبت أيدي الناس لأنه ليس يوم الجزاء، وإنما ﴿بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ - ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1] عفواً هنا مؤقتاً ثم يظهر في الأخرى ما لا يعفى عنه بمكفرات هنا.

وليس ظلم الناس هنا - فقط - بالذي يفسد عليهم، بل وكل دابة ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2].

هذه أبعاد ظلم الناس حيث لا تبقي دابة في الأرض ولا تذر إلّا قضت عليها لو لا تأخيرهم إلى أجل مسمى، وتأخير العذاب إمهال لمن يتذكر ببعضه هنا، وإملال على الطغاة وقد يأخذهم عذاب الاستئصال.

وما كسبت أيدي الناس في كل حقل يظهر منه حقله، ثقافياً - عقائدياً - سياسياً - اقتصادياً[3]، وإمرة علينا[4].

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ٦١.
(٣) نور الثقلين ٤: ١٩٠ عن القمي قال الصادق عليه السلام في الآية: حياة دواب البحر بالمطر فإذا كف المطر ظهر الفساد في البر والبحر وذلك إذا كثرت الذنوب والمعاصي.
(٤) المصدر عن ميسر وعن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: ذلك والله يوم قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير.

مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أكثر الهلكى الغابرين كانوا مشركين، والباقون موحدون، أهل كتاب وسواهم بما كانوا يتخلفون عن شرحة التوحيد، ولا سبيل للفرار عن سوء العاقبة هنا وفي الأخرى إلّا إقامة الوجه للدين القيم وهو التوحيد الحق وحق التوحيد الذي تتبناه الفطرة والعقلية والشرعة، كل تلو بعض ولصق بعض في تعاضد ثلاثي سامي.

﴿فَأَقِمْ . . . مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وهو يوم انقطاع التكليف، بدايته يوم الموت ونهايته يوم الأخرى، ولأن هذا التكليف قائم على كل مكلف إلى يوم الدين، لم يكن ليخص أحد اليومين، فمن مات قبل القيامة فـ ﴿يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ بادئ له من الموت، ومن مات في قيامة الإماتة فيوماه يوم واحد، وهو على أية حال ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

والمردّ هو مصدر ميمي واسم زمان ومكان، و«من» قد تعني كلا الابتدائية والتجاوز، فمثلث المردّ لذلك اليوم مسلوب «من الله» إذ لا يرد، ومن غير الله «من الله» أن نحمله على المردّ.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أصلها يتصدعون، وهو التفرق والتمزق، فلا تصدّع يوم الدنيا بما عملوا إذ لا تتفجر وتظهر بحقائقها النارية، فإنما هو يوم بعد الموت برزخاً بينه وبين الأخرى، وجزاء أوفى فيها: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1].

فهنا يتصدعون بكل تصدّع وصداع في أنفسهم، ويتفرقون بعضهم عن بعض، ويتفرق الكل عن المؤمنين ففريق في الجنة وفريق في السعير.

(١) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١.
(٢) سورة الطور، الآية: ٢١.